

قوة معرفية مغربية تغيب عن الجدل في ذروة احتدامه

جليلة السباعي

مفكرة حفرت في ثنائية فرنسا والإسلام



• دراساتها في اللغة العربية والعلاقات الدولية وعلم الاجتماع، أدوات أهلت السباعي، لدراسة الترابط التاريخي ما بين المسيحية والسياسة الاستعمارية الفرنسية.



• آخر كتب السباعي "السياسة الإسلامية في فرنسا"، سيققى، حسب كثيرين، مرجعا رئيسيا لأجيال المستقبل في فهم السياسة الفرنسية للإسلام، وقد حصل على الجائزة الكبرى لـ"ملتقيات التاريخ العربي"، التي يقدمها معهد العالم العربي بباريس.



محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

كان لشهر أكتوبر الجاري وقع خاص في النقاش العام داخل فرنسا من خلال وقائع عنوانها الأول "الإسلام"، بعدما أعاد الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون الحديث حول ما يمكن اعتباره الموقف الرسمي والنخبوي من الإسلام والمسلمين، حين صرح قبل أيام بأن "الإسلام بمر بارزامة". وستكون هذه السطور متزامنة مع الجدل الدائر حول علاقة فرنسا بالإسلام من البعد الفكري، بالتركيز على تحليل ذلك وتأثير متغيرات متنوعة حول الإسلام في فرنسا كما قاربته المغربية المولودة بمدينة فاس المغربية والمقيمة بفرنسا، جليلة السباعي التي عملت كباحثة مشاركة بكبرى الترخ المعاصر للعالم العربي بوليج دو فرانس، والتي واقتها المعنية بفرنسا وتمت مواراتها الثرى قبل أيام، باعتبارها مفكرة ومؤرخة رسمت بحنكة المسافات الفاصلة والمتداخلة في سياسة فرنسا مع الإسلام والمسلمين، رغم مرضها وإرهاقها.

آخر الانتشغالات العلمية للسباعي كانت تحضير ملف للنتشر حول "مسألة الخلافة"، عملت فيه إلى جانب الباحث الأستاذ في الكوليج دو فرانس، هانري لورانس، الذي حضرته معه الورقة حول الإشكال الذي يجسده الموضوع.

فرنسيون ومسلمون

موقف ماكرون تأسس على اعتبارات سياسية وأيديولوجية وانتخابية، نظرا للكتلة المهمة والمؤثرة المكونة من ملايين المسلمين داخل فرنسا. زد عليه إعلان الرهينة صوفي بيتروين، إسلامها بعد 4 سنوات قضتها مختطفة في مالي من طرف جماعات جهادية تنشط بالساحل والصحراء، حيث صدمت الكل بأن اسمها لم يعد صوفسي، وإنما مريم بحمولتها العقائدية والتاريخية عند المسيحيين والمسلمين على حد سواء.

في هذا الخضم المتلاطم الذي يختلط فيه الأيديولوجي مع تكتيكات السياسي والحسابات الانتخابية والعوامل النفسية والاجتماعية المشككة للتاريخ الفرنسي فكريا وثقافيا وعسكريا ودبلوماسيا، في هذا الخضم، تغيب السباعي التي عالجت علاقة الدولة بالإسلام والمسلمين من قلب فرنسا، ويرى أحمد التوفيق، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغربي، أن السباعي كانت تتحدث بحماسة عن اكتشافاتها النظرية بخصوص الخلفيات

المغربي في الحفاظ على هذه المؤسسة التي ضاعت في كل البلدان، وتريد بعض التيارات استرجاعها عن طريق الإكراه باسم "الخلافة"، وكانت تقول له، حسبما قال "أنا متأكد أن قراءة أكاديمية للنظام المغربي ستلقى كثيرا من الضوء على هذا الإشكال، إشكال الخلافة".

وتركيزا على هذه النقطة في السياسة الفرنسية منذ زمن طويل كانت إدارة عبادة المسلمين من طرف الفرنسيين، مختلفة في كل من الجزائر وتونس والجزائر، حسبما توصلت إليه السباعي، حيث أدى تدمير الهياكل الدينية بالجزائر وهجرة قادتها إلى سوريا إلى خلق فراغ ملأته الحكومة بجعل أفراد الطائفة رسميين، وهو ما لم يحدث في البلدين الآخرين حيث، على العكس من ذلك، تم إبقاء الأخيرين يلعبان على قيادتهما؛ الذي في تونس وأمير المؤمنين في المغرب.

تعتبر الجهادية والإسلام السياسي والهجرة المغربية محددات مهمة لمعرفة السياسة الفرنسية بخصوص الإسلام والمسلمين داخل وخارج الجمهورية، كان ذلك قبل وبعد ثورة الملاهي الإيرانية عام 1979، وفي ظل هذه المحددات والخبرات كيف تم فهم التناقض بين توقعات واحتياجات المسلمين الفرنسيين والتوجهات السياسية الحكومية عبر تاريخ

السياسي ترى أن عدم توافق الإسلام مع الجمهورية الفرنسية ليس سوى ذريعة لعدم معالجة مسألة تعدد العرقيات والهويات الدينية والثقافية بشكل مباشر.

في العلاقات الدولية وعلم الاجتماع،

ومحارب للخرافات، ثم تم تقديم النساء المسلمات على أنهن يستفدن من المساواة التي يمنحها القرآن وبالتالي على أنهن أكثر حرية من النساء الغربيات.

بعض الأكاديميين يجمعون على ضرورة تغيير فرنسا الرسمية لسياساتها تجاه الإسلام الذي يعتنقه أكثر من عشرة ملايين فرنسي، لكن السباعي لم تقف عند هذا الحد، بل أكدت أن العلاقة بين الدولة الفرنسية والإسلام، لطالما كانت غامضة

لتبرير ذلك، بينما يثير مرة أخرى مسألة الإسلام الذي يجب إصلاحه ليكون قابرا على الاندماج، وجدوا أنفسهم مجبرين على التعريف كمسلمين عندما يتم الاعتراف بمطلبهم كجزء من التنوع أو الانتماءات المتعددة.

مع المطالب المتكررة بتجديد الخطاب الديني وقراءة جديدة للإسلام ليتوافق مع فلسفة فرنسا ونظريته إلى الدين والمسلمين، تعتقد الباحثة المغربية، أن الإنتاج العلمي والفكري حول مكانة الإسلام والمسلمين في فرنسا منذ نهاية الثمانينات، سواء أكان مع أم ضد

ماسسة الإسلام في فرنسا، يمثل التحول في النموذج، لكن بالعودة إلى رؤى الباحثة المغربية نجدنا نقول بأن تأسيس وممارسة السياسة الإسلامية لدى الفرنسيين العلمانيين

لهما وظيفة أساسية، إما تعزيز التوسع الاستعماري وإما الحفاظ على الاستقرار السياسي في شمال أفريقيا، وهو حجر الأساس للإمبراطورية الفرنسية إبان الاستعمار، وتقول بأنها سياسة

مفترضة لإدارة الدين، يُنظر إليها على أنها حقيقة اجتماعية كاملة: الإسلام اجتماعية ومن المدهش أن نلاحظ اليوم أن هذا المفهوم لم يتغير.

وعليه تكشف السباعي، أن كل هذه الإسقاطات في الواقع هي القراءة الكاثوليكية للحقيقة الدينية الإسلامية من قبل صانعي القرار الفرنسيين وتعكس الخلافات داخل الكاثوليكية الفرنسية حول مسائل لاهوتية

بحثة مثل المساواة بين العقائد التوحيدية أو السياسية، وترى أنه يتم اليوم إعادة تنشيط وتحديث هذه الرؤية التي دمجها صناع القرار الفرنسيون والشخصيات العامة السياسية والدينية والعلمانية وبعض المسلمين الفرنسيين أيضا.

أهلها منذ بداية مسيرتها العلمية، لدراسة الترابط التاريخي ما بين المسيحية والسياسة الاستعمارية الفرنسية في البلاد الإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث انكبت الباحثة المغربية بالديار الفرنسية على البحث في إشكاليات اندماج المهاجرين المغاربة في علاقتها بالانتماء الديني، في فرنسا على وجه الخصوص.

ولفهم الوضع الحالي يتوجب إجراء فحص دقيق للخطاب المستمر منذ القرن السابع عشر الذي يقول إن الإسلام يشكل عقبة في حد ذاته، ومن هنا تأتي الحاجة إلى إصلاحه، لأن ما توصل إليه المستشرقون الفرنسيون والوثائق الاستثنائية والعلمية هناك، أن ولاء المسلمين للأمة "مجتمع المؤمنين" سيكون عقبة أمام العلمانية وتكامل القيم الجمهورية وبالتالي لن يكون من الممكن تصور "العيش معا" بسبب التهديد بالعنف المتواصل في الإسلام، على أساس مفهوم الجهاد. وفي تقييمها لذلك، تقول السباعي، إن اهتمام الاستشراق قبل الثورة الفرنسية في العام 1789، انصب على إصلاح العلاقة بين السياسة والدين في فرنسا ووضع الأساس لمناقشات حول الإسلام والدين واللغة، ومن خلال ترجمات القرآن تم النظر إلى الدين الإسلامي على أنه طبيعي أكثر من الدين الكاثوليكي، ومنذ ذلك الحين، نشأت صلة مباشرة بين الإسلام والدراسات اللاهوتية ودراسات اللغات. ومع ذلك، ترى السباعي، أنه قد بدأ بناء هذا النموذج العلماني العالمي في فرنسا من خلال تقديم الإسلام أولا كنموذج للإلهام، قبل وضعه كنموذج مضاد يجب بالضرورة

إصلاحه، أو حتى تدميره، ففي عصر التنوير، على سبيل المثال، لأجل مهاجمة فولتير للكاثوليكية بشكل أفضل، قدم الإسلام كدين متسامح تأسس على الإرادة الحرة، ورسوله محمد متوازن

لا تزال تجربة الماضي الاستعماري الفرنسي تغذي العلاقة مع الإسلام والمسلمين في فرنسا اليوم، وهناك نقاش طويل حول التعارض المفترض بين الإسلام مع الجمهورية، وفي رأي السباعي، أن عدم توافق الإسلام مع الجمهورية ليس سوى ذريعة لعدم معالجة مسألة تعدد العرقيات والهويات الدينية والثقافية بشكل مباشر أو بشكل أدق مسألة "إضفاء الصبغة" على الهوية الفرنسية، والتي تتجاوز بالطبع، إلى حد كبير مسألة المسلمين أو أحفاد المسلمين من الإمبراطورية القديمة.

تجربتها في البحث والتدريس في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية، مكنتها من نشر مجموعة من الأبحاث التي تقدم قراءة جديدة للمفاهيم ذات العلاقة بهياكل النظام السياسي للدولة الإسلامية مثل "الخلافة" أو "الشورى"، وكذا الرؤية الفرنسية لهذا الدين ومعتنقيه، إلى جانب أن حصولها على إجازة في اللغة العربية وتخصصها في العلاقات الدولية وعلم الاجتماع،

عندما اندلعت الحرب العظمى، كانت هناك هجرة قوية لأبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا، الذين قاتلوا في الجبهة أو حلوا محل العمال الفرنسيين، نظرا لأن هؤلاء كانوا رعايا وليسوا مواطنين فرنسيين كاملين، وتعلق السباعي على ذلك بالقول إن المجتمع الفرنسي، غير القادر على التعرف على عنصريته ومواجهتها، يفضل تمثيل مجتمع مسلم متجانس للثقفة ويعتبره غريبا عنه".

العنصرية والإسلام العلماني

عندما اندلعت الحرب العظمى، كانت هناك هجرة قوية لأبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا، الذين قاتلوا في الجبهة أو حلوا محل العمال الفرنسيين، نظرا لأن هؤلاء كانوا رعايا وليسوا مواطنين فرنسيين كاملين، وتعلق السباعي على ذلك بالقول إن المجتمع الفرنسي، غير القادر على التعرف على عنصريته ومواجهتها، يفضل تمثيل مجتمع مسلم متجانس للثقفة ويعتبره غريبا عنه".

عندما اندلعت الحرب العظمى، كانت هناك هجرة قوية لأبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا، الذين قاتلوا في الجبهة أو حلوا محل العمال الفرنسيين، نظرا لأن هؤلاء كانوا رعايا وليسوا مواطنين فرنسيين كاملين، وتعلق السباعي على ذلك بالقول إن المجتمع الفرنسي، غير القادر على التعرف على عنصريته ومواجهتها، يفضل تمثيل مجتمع مسلم متجانس للثقفة ويعتبره غريبا عنه".

عندما اندلعت الحرب العظمى، كانت هناك هجرة قوية لأبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا، الذين قاتلوا في الجبهة أو حلوا محل العمال الفرنسيين، نظرا لأن هؤلاء كانوا رعايا وليسوا مواطنين فرنسيين كاملين، وتعلق السباعي على ذلك بالقول إن المجتمع الفرنسي، غير القادر على التعرف على عنصريته ومواجهتها، يفضل تمثيل مجتمع مسلم متجانس للثقفة ويعتبره غريبا عنه".



السباعي ترى أن عدم توافق الإسلام مع الجمهورية الفرنسية ليس سوى ذريعة لعدم معالجة مسألة تعدد العرقيات والهويات الدينية والثقافية بشكل مباشر.